من جنود الله ومن صفات جلاله ، فالمراد : اتقوا عذاب الله ، واتقوا صفات القهر والجبروت بأن تجعل بينك وبينها وقاية .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

معنى ﴿ بِيَدِهِ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] تدل على التمكّن من الشيء ، كما تقول : هذا الأمر في يدى يعنى فى مُكْنتى وتصرفى ، أقلبه كيف أشاء ﴿ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] مادة ملك منها مِلْك ، ومنها مُلْك ، ومنها ملكوت .

المِلْك ما تملكه أنت ، حتى لو لم يكن عندك إلا ثوب واحد فهو مِلْك ، أَمَّا مُلْك فيعنى أنْ تملك مَنْ يملك ، وهذا يكون ظاهراً . أما المَلكوت فالأشياء المخلوقة التى لا تقع عليها حواسُّك ، ولا يمكن أن تعلم عنها شيئاً إلا بإخبار خالقها ، والإنسان لا يرى كل ما فى الكون ، بل إن فى نفسه وذاته أشياءً لا يعرفها ، فهذا كله من عالم الملكوت .

بل إن الإنسان لا يرى حتى المُلْك الظاهر المحسّ ؛ لأنه لا يرى منه إلا على قَدْر مَدِّ بصره ، وما خرج عن هذا النطاق لا يراه ، وإن كان يراه غيره ، ويمكن أن يدخل هذا المُلك الذى لا تراه فى دائرة الملكوت بمعناه الواسع .

إذن : الملكوت يُطلق على الأشياء المحجوبة التى لا يراها أحد ، أو على الأشياء التى يراه واحد دون الآخر .

والإنسان إذا تعمَّق فى عبادة الله وفى طاعته يفيض عليه من التجليات ، ويعطيه من هذا الملكوت عطاءً مباشراً ، كما قال : ﴿مِّن لَّدُنَّا .. (٦٧)﴾ [النساء]

ألا ترى إبراهيم عليه السلام قال عنه ربه : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة] يعنى : يؤدى ما لله بدقة وعلى الوجه الأكمل ؛ لذلك يأتمنه ربه على أن يكون إماماً للناس ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

فلما أحسن إبراهيمُ ما بينه وبين ربه وبلغ هذه المنزلة قال عنه ربه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (٧٥)﴾[الأنعام]

لأنه أحسن فى الأولى فرقى إلى أعلى منها . كما لو دخل رجل بيتك وشاهد ما عندك من نعيم ، ففرح لما أنت فيه ، وقال : ما شاء الله تبارك الله ، ودعا لك بالزيادة ، فلما رأيت منه ذلك قلت له إذن : تعالى أريك ما هو أعظم .

كذلك العبد الصالح الذى عبد الله وتقرَّب إليه بمنهج موسى عليهما السلام ، فلما استقام على هذا المنهج وتعمَّق فى عبادة الله وطاعته أعطاه الله من علمه اللدنىّ دون واسطة ودون رسول ، حتى كان هو مُعلِّماً لموسى عليه السلام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون]

يجير : تقول : استجار بفلان فأجاره يعنى : استغاث به فأغاثه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨)﴾ [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضَعُفَتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى يحميه ويدافع عنه .

إذن : هذه المسألة لها ثلاثة عناصر : مجير ، وهو الذى يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجَار : وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجَار عليه : وهو القوى الذى يريد أن يبطش . ومن المعروف أن رسول الله ﷺ فى رحلته إلى الطائف وبعد أنْ فعلوا به ﷺ ما فعلوا استجار ، ودخل فى حمى كافر .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يجير مَن استجار به ، ويغيث مَن استغاثه لكن ﴿لا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] لأن الذى يجيرك إنما يجيرك من مساوٍ له فى القوة ، فيستطيع أن يمنعك منه ، ويحميك من بطشه ، فَمَنْ ذَا الذى يحميك من الله ؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك ؟!

لذلك يقول سبحانه فى مسألة ابن نوح : ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود] فالله ـ عز وجل ـ يجير على كل شىء ، ومن أصبح وأمسى فى جوار ربه فلا خوف عليه .

وتلحظ هنا العلاقة بين صَدْر هذه الآية وعَجُزها : فالله تعالى بيده وفى قبضته سبحانه كل شىء ، والأمر كله إليه ، فإياك أنْ تظن أنك تفلت من قبضته بالنعمة التى أعطاك ؛ لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها ، وساعتها لن يجيرك أحد ، ولن يغيثك من الله مغيث ، ولن يعصمك من الله عاصم .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]

وهنا أيضاً يقول سبحانه : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون] إنْ كان عندكم علم بهذه المسألة ووصلت إليكم وعاينتموها .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ (١)

ففى هذه أيضاً يقولون « لله » ؛ لأنه واقع ملموس لا يُنكَر ، وطالما أن الأمر كذلك ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون] كيف تسحرون أو أسْحِرتم عن هذا الواقع وصُرِفتم عنه إلى هذا الكلام الباطل ؟

هذه قضايا ثلاث جاءت على صورة سؤال لتدينهم بوضوح العقيدة فى الوجود الأعلى ، وبوضوح البينات فى إعجاز البلاغ عن الله ، وبوضوح الآيات فى آيات المنهج ، وقد أراد الحق سبحانه أن يأتى الكلام منهم وبإقرارهم هم على أنفسهم ؛ ليكون حجة وشهادة حَقٍّ عليهم .

ومعلوم أن الإقرار سيد الأدلة ؛ لذلك سألهم : ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا .. (٨٤) ﴾ [المؤمنون]

﴿ وقُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) ﴾ [المؤمنون]

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

وهم يقولون فى هذا كله (لله) إذن : فماذا بقى لكم ؟ ما الذى منعكم أن تتقوا الذى تؤمنون بأنه المالك للأرض وللسماء وبيده كل شىء ؟ إنه مجرد استكبار وعناد وغطرسة ، وإلا فماذا تعنى كلمة (الله) التى تنطقون بها ؟

إنكم تعرفون الله ، وتعرفون مدلول هذه الكلمة ؛ لأن مدلول الكلمة سابق على وجودها فى لغة البشر ، فاللغة عادة ألفاظ توضع لمعانٍ

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٦٧٩/٦) : « أى : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده . أو : كيف يخيل إليكم أن لا تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع » .

تدل عليها ، فالمعنى يُوجَد أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدالّ عليه ، وما دام أن لفظ (الله) يدور على ألسنتكم ولا بُدَّ أنكم تعرفون مدلوله ، وهو قضية لغوية انتهيتم منها ، وإلا فالأمر العدمى لا اسم له . فالتليفزيون مثلاً : ما اسمه قبل أن يخترع ؟ لم يكن له اسم ؛ لأنه لم يكُنْ له معنى ، فلما وُجِد وُضِع له الاسم .

وحيث دارت الألسنة بكلمة الله فمعنى ذلك أنه تعالى موجود قبل وجود الاسم ، فالمسألة ـ إذن ـ حجة عليكم .

لذلك عرض الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه القضايا فى صورة سؤال لينتزع منهم الإقرار بها ، كما لو أنكر شخص جميلك فيه ، فإنْ قلتَ له على سبيل الإخبار : لقد قدمتُ لك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب وله أن يعترف أو ينكر .

أما حين تقول له : ألم أقدِّم لك كذا وكذا ؟ على سبيل الاستفهام ، فإنه لا يملك إلا الاعتراف ، وينطق لك بالحق وبالواقع ، وتصل بإقراره إلى مَا لا تؤديه الشهادة أو البينة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يعنى : دعونى أخبركم عن أمرهم ، ولماذا أنكروا الحق ولم ينطقوا به ، إنهم ينكرون الحق لأنهم كاذبون ويريدون أنْ يُثْبتوا أن ما هم عليه أمر طبيعى ، لماذا ؟ لأنهم مستفيدون من الانحراف ومن الباطل ؛ لذلك يقفون فى وجه الرسالة التى جاءت لتعديل الميزان والقضاء على الانحراف والباطل ، ويلجئون إلى تكذيبها وصَرْف الناس عنها ليظلوا ينتفعون هم بالباطل .

لذلك تأمل : لماذا يُكذِّب الناس ؟ يُكذِّبون لأنهم ينتفعون من الكذب ، ويتعبهم الصدق ، ويُضيِّق عليهم الخناق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾

يا ليت الأمر وقف بهم عند مجرد عدم الإيمان بالله ، إنما تعداه إلى أن وصفوا الله تعالى بما لا يليق من الصفات ، وما دام أن الله تعالى ينفى عن نفسه تعالى اتخاذ الولد ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] فلا بد أنهم قالوا : اتخذ الله ولداً ، فترقوا فى فجورهم وطغيانهم ، وتجرأوا حتى على مقام العزة .

ونقول أولاً : ما الولد ؟ الولد ما ينجبه الإنسان من ذكر أو أنثى ، وقد سمعنا هؤلاء يقولون : عيسى ابن الله ، والعزير ابن الله ، وقالوا عن الملائكة : بنات الله ، وقد قال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] ليشمل البنين والبنات .

ومعنى ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] أن الله تعالى كان موجوداً ، ثم اتخذ له ولداً ، فاتخاذ الولد إذن حادث ، وهذا يعنى أنه قد مرت فترة لم يتخذ الله له فيها ولداً ، لذلك نسأل : ما الذى زاد فى مُلْك الله بوجود الولد ؟ هل أصبحت السموات ثمانية ؟ هل زاد فى الكون شمس أخرى أو قمر ؟ الكون كما خلقه الله تعالى ، وجعل فيه

ضرورياته وأصـوله وفروعه لم يـزد فيه شيء . إذن : فـاتخاذ الولد عَبَثٌ لم يحدث منه شيء .

ويقـولون : اتخذ الله الولد ليُؤْنس خَلْقه بوجـود ولده وشيء من رائحته بين الخلق ، قالوا هذا في مؤتمر (نيقية) ، كأنه عندهم يقوم مقام الألوهية . لكن كم كانت مدة بقـائه بينكم ؟ لقد أقام المسيح في الأرض بضعاً وثلاثين سنة قبل أن يُرْفع ، فكيف يحرم من هذا الأنس مَنْ سبقوا ميلاده عليه السلام ؟ وكيف يُحْرم منه مَنْ أتوا بعده ؟

أليس في هذا مـا يتعارض وعـدالة الربوبية ؛ لأن الخَلْق جـميعاً خَلْق الله ، وهم عنده سواء ؟

ومنهم مَنْ يقول : إنه جاء ليرفع الخطيـئة ، لكن الخطيئة ما زالت في الأرض بعدما فعل ما فعل . إذن : فكلها حُجَج واهية .

ولو ناقشنا هذه المسـألة مناقشـةً منطقيةً فلسـفيةً : لماذا يتـخذ الإنسانُ الولَد ؟ يتخذ الإنسانُ الولدَ لأنه يحب الحياة ، وموته يختصر هذه الحياة ، فيريد الولد ليكون امتداداً لحياته ، ويضمن به بقاء الذكْر جيلاً من بعده ، فإنْ جاء للولد ولد ضمن جيلين ؛ لذلك يقولون « أعزّ من الولْد ولْد الولد » . لكن أي ذكْر هذا الذي يتمسَّكون به ؟ إن الذكر الحقيقي ما تخلفه من بعدك من عمل صالح يسبقك عند الله .

والحق - سبحـانه وتعالى - لا يحتاج إلى ذكْـر من بعده تعالى ؛ لأنه باقٍ لا يموت ، فهذه المسألة إذن ممنوعة في حقِّه تَعالى .

وقـد يُتخـذ الولد ليكون سنداً وعَـوْناً لأبيه حـين يكبر وتضـعف قواه ؛ لذلك يقـولون : خير الزواج الزواج المبكر ؛ لأنه يسـاعدك على إنجـاب أب يعولك فـي طفولة شـيـخوخـتك ؛ لأنك تنجب طفـلاً وأنت

صغير ، فيعاصرك أكبر مدة من الزمن ، وتطول به قُرَّة عينك على خلاف مَنْ ينجب على كِبَر ؛ لذلك قال : أب يعولك فى طفولة شيخوختك ولم يقل ابناً لأنك فى هذه الحال تحتاج إلى حنان الأب .

وهذه أيضاً ممتنعة فى حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه القوى ، الذى لا يحتاج إلى معين ، ولا إلى عزوة .

مسألة أخرى : أن الإنسان يحب الولد ؛ لأنه بَعْضٌ منه ، وهو سبب فى وجوده ، فيحب أن يكون له ولد من صُلْبه ، وهذا فرع من حُبِّه للتملُّك ، فالإنسان أول ما يحب يحب أن تكون له أرض ، ثم يحب أن يزرعها ويأكل من خيراتها ، ثم يحب أن تكون له حيوانات يشرب لبنها ويستفيد منها ، ثم إنْ تَمَّ له هذا كله يتطلع إلى الولد ، وكأنه تدرَّج من حب الجماد إلى النبات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان .

وهذه المسألة أيضاً لا تجوز فى حقه تعالى ، فإنْ أحببتَ الولد ليكون جزءاً منك ومن صُلْبك تعتز به وببُنوته ، فالخَلْق جميعاً عيال الله وأولاده ، فكيف يحتاج إلى الولد بعد ذلك ؟

إذن : كلها حجج ومسائل باطلة ؛ لذلك رَدَّ الله عليهم ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] وأتى بمنْ الدالة على العموم ، يعنى : ما اتخذ الله شيئاً من بداية مَا يُقال له ولد ، ولو كان حتى مُتبنًّى ، كما تقول : ليس عندى مال ، فتنفى أن يكون عندك مال يُعْتد به أو ذو قيمة ، لكن هذا لا يمنع أن يكون عندك عدة جنيهات أو قروش . فإنْ قلت : ما عندى من مال ، فقد نفيتَ أنْ يكون عندك أقلّ ما يُقَال له مال .

ونردّ بهذه المسألة على مَنْ يقول أن (من) هنا زائدة ؛ لأن كلام الله دقيق لا زيادة فيه ، الزيادة فى كلام البشر ، والحق سبحانه مُنزَّه عن هذه المسألة .

ثم يرتقى بنا الحق سبحانه فى الردِّ عليهم فيقول : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : معبود بحق أو بغير حق ؛ لذلك سمّى الأصنام آلهة ، لكن كلمة الله انصرفت إلى المعبود بحق سبحانه وتعالى ، فنفى الحق سبحانه الشركاء معه فى العبادة ، كما جاء فى موضع آخر : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

يعنى : لو كان فيهما آلهة الله خارج منها لَفَسدت السماء والأرض ، وكذلك لو كان فيهما آلهة مع الله لَفسدتَا أيضاً ؛ لأن إلا هنا ليست استثنائية ، إنما هى اسم بمعنى غير ، وقد ظهر إعرابها على لفظ الجلالة بعدها (الله) .

ومسألة تعدُّد الآلهة لو تأملتها لَبانَ لك بطلانها ، فإنْ كان مع الله آلهة لاقتسموا هذا الكون فيما بينهم ، وجعلوه قطاعات ، يأخذ كل منهم قطاعاً فيه ، فواحد للأرض ، وآخر للسماء ، وثالث لما بين الأرض والسماء وهكذا .

ولكن ، هل يستغنى قطاع من الكون عن الآخر ؟ أتستغنى الأرض عن السماء ؟ إذن : سيحدث تضارب لا يستقيم معه حال الكون .

كذلك نقول : الإله الذى أخذ الأرض مثلاً ، لماذا لم يأخذ السماء ؟ لا بُدَّ أنه أخذ الأرض بقُوَّته ، وترك السماء لعجزه ، ولا يصلح إلهاً مَنْ وُصف بهذه الصفة ، فإن قالوا : إنهم جميعاً أقوياء يستطيع كل واحد منهم أن يخلق الخَلْق بمفرده نقول : إذن ما فائدة الآخرين ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : لو استقل كل منهم بقطاع من الكون دون الآخر لَفَسدتْ الأمور ، كما رأينا فى دنيا البشر أن يحاول أحد

الملوك أنْ يستقلَّ بقطاع من الأرض لا حَقَّ له فيه ، ورأينا ما أحدثه من فساد فى الأرض ، هذا مثال لقوله تعالى : ﴿ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] وهى صورة من صور الفساد .

لذلك يعالج الحق سبحانه هذه القضية ويعلنها على الملأ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فليس هذا كلامنا ، وليست هذه شهادتنا ، بل كلام الله وشهادته سبحانه لنفسه ، لكن هل علم هؤلاء الآلهة بهذه الشهادة ؟ إنْ علموا بهذه الشهادة فسكوتهم عليها وعدم اعتراضهم عَجْز ، وإن لم يدروا فَهُم غافلون نائمون ، ففى كلتا الحالتين لا يصحّ أن يكونوا آلهة .

وفى موضع آخر يردّ عليهم الحق سبحانه : ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا .. (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى فى هذه الحالة ﴿ لاَّبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا يبحثون عن الإله الذى أخذ منهم الكون ، وتعدَّى على سلطانهم ، إما ليجابهوه ويحاكموه ، وإما ليتقربوا إليه .

لذلك سيقول عن الذين تدّعون أنهم آلهة من دون الله : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء] يعنى : عيسى والعزير والملائكة الذين قلتم إنهم بنات الله ، هؤلاء جميعاً يتوسلون إلى الله ويتقربون إليه ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

إنهم لا يستنكفون عن عبوديتهم لله ، بل يعتزون بهذه العبودية ،

ويُغضبهم ويسوؤهم أن نقول عنهم آلهة ، أو نعطيهم من التقديس أكبر مما يستحقون ؛ ذلك لأن ولاءهم وعصبيتهم لله تعالى أكبر من ولائهم وعصبيتهم لأنفسهم .

لذلك ، فإن هذه الأشياء التي يتخذونها آلهة من دون الله هي أول مَنْ يلعنهم ، فالأحجار التي عبدوها من دون الله - مع أن كلمة العبادة هنا خطأ ونقولها تجاوزاً ؛ لأن العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ، وانتهاؤه بنهيه ، والأحجار ليس لها أوامر وليس لها نَوَاه - هذه الأحجار أعبد منهم لله ، وأعرف منهم بالله ؛ لذلك تكرههم الحجارة وتلعنهم ، وتتحول عليهم في القيامة ناراً تَحْرقهم .

اقرأ هذا الحوار الذي يتنافس فيه غار حراء الذي شهد بداية الوحي وأنس فيه رسول الله ﷺ بأول آيات القرآن ، وغار ثور الذي احتمى فيه رسول الله عند الهجرة ، وكلاهما أحجار ، يقول الشاعر[1] :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يغْذُوكَ بالأنْوارِ
فَحِراءُ وثَوْرُ صَارَا سَوَاءً ... بهما اشْفع لدولةِ الأحجارِ
عَبدُونا ونَحْن أعْبَدُ لله ... مِنَ القائمين بالأسْحَارِ
تَخذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً ... فغدَوْنا لهم وَقُودَ النارِ
قد تجنَّوا جَهْلاً كما قد تجنَّوْه ... عَلَى ابْن مريم والحَوارِي
للمُغَالِي جزاؤه والمغَالَى ... فيه تُنجيه رحمةُ الغَفارِ

لذلك يقول تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

(١) من شعر فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .

فيقول عيسى : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة]

نعم ، الله تعالى يعلم ما قال عبده ونبيه عيسى ، لكن يريد أنْ يقر عليهم بأنه كاره لقولهم هذه الكلمة .

والنبي ﷺ حينما هُزِم الرومان من الفرس حزن لهزيمة الرومان، لماذا ؟ لأنهم أهل كتاب يعرفون الله ، ويعرفون البلاغ عن الله ، وإنْ كانوا كافرين به ، أما الفُرْس فكانوا مَجُوساً يعبدون النار ؛ لذلك يُطمئنه ربه بقوله : ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

فإنْ كانوا لا يؤمنون بمحمد ، فهم يؤمنون بربِّ محمد ، فالعصبية - إذن - لله أكبر من العصبية للرسول المبلّغ عن الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون] يصفون بمعنى : يكذبون ، لكن عبَّر عنه بالوصف كأن المعنى : إنْ أردت أنْ تعرف الكذب فاسمع إلى كلامهم فهو الوصف الدقيق له ، وقال في موضع آخر : ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢)﴾ [النحل] فكلامهم هو الكذب بعينه ، وهو أصدق وَصْف له ؛ لأن الكذب ما خالف الواقع ، وهم لا يقولون إلا ما خالف الواقع .

كما لو سألت : ما الحماقة ؟ فأقول لك : انظر إلى تصرفات فلان ، يعني : هي الوصف الصادق للحماقة ، والترجمة الواضحة لها ، وكأنه بلغ من الوصف مَبْلَغاً يُجسِّم لك المعنى الذي تريده .

ومعنى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] تنزه ، وهى مصدر وُجِد قبل أنْ يُوجَد المسيح ، فهى صفة لله تعالى أزلية ، حيث ثبت تنزيه الله قبل أن يخلق الخَلْق ، فلما خلق الله السماء والأرض سبَّحت لله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد] ولم ينقطع التسبيح بعد ذلك ، قال الحق سبحانه : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

وما دام الكل يُسبِّح لله ، وما زال مُسبِّحاً ، فسبِّح أنت يا محمد : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

فكيف يكون الكون كله مُسبِّحاً ، ولا تُسبِّح أنت ، وأنت سيد هذا الكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته العلية :

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) ﴾

العلم : إدراك قضية أو نسبة واقعة مجزوم بها وعليها دليل ، ولا يصل إلى العلم إلا بهذه الشروط ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وواقعة ، لكن لا تستطيع أن تُدلِّل عليها كالطفل حين يقول : الله أحد ، فهذا تقليد كما يُقلِّد الولدُ أباه أو مُعلمه ، فهو يُقلِّد غيره فى هذه المسألة إلى أنْ يوجد عنده اجتهاد فيها ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وليست واقعة ، فهذا هو الجهل ، فليس الجهل كما يظن البعض ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أن تجزم بقضية مناقضة للواقع .

لذلك تجد الجاهل أشقَّ وأتعب لأهل الدعوة وللمعلمين من الخالى الذهن الذى لا يعرف شيئاً ، ليست لديه قضية بدايةً ، فهذا ينتظر منك أن تُعلِّمه ، أمّا الجاهل فيحتاج إلى أن تُخرِج من ذِهْنه القضية

الخاطئة أولاً ، ثم تضع مكانها الصواب .

والغيب : المراد به الغيب المطلق يعنى : ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمن حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غيب لمن غاب عنه ، وهذا غيْب مُقيد ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما ؛ لأن هذه الأشياء كانت غَيْباً عَمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصلنا إلى مقدماتها ظهرت لنَا وصارت مشهداً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فأثبت الإحاطة للناس لكن بشرط مشيئته تعالى ، فإنْ شاء أطلعهم على الغيب ، وأوصلهم إلى معرفته حين يأتى أجل ميلاده وظهوره .

إذن : المعلوم لغيرك وغَيْب عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات تُوصِّل إليه ليس غيباً ، إنما الغيب هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك ، والذى قال الله تعالى عنه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

والشهادة : يعنى المشهود ، لكن ما دام الحق سبحانه يعلم الغيب ، فمنْ باب أَوْلَى يعلم المشهود ، فلماذا ذكر الشهادة هنا ؟ قالوا : المعنى : يعلم الغيب الذى غُيِّب عنى ، ويعلم الشهادة لغيرى .

ومن ناحية أخرى : ما دام أن الله تعالى غيْب مستتر عنا ، وهناك كوْن ظاهر ، فربما ظن البعض أن المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد - سبحانه وتعالى - أن يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب ، لكن يعلم الغيب والشهادة .

ونرى من الناس مَنْ يحاول أن يهتك ستار الغيب ، ويجتهد فى أن يكشف ما استتر عنه ، فيذهب إلى العرافين والمنجِّمين وأمثالهم ، وهو لا يدرى أن الغيب من أعظم نِعَم الله على خَلْقه ، فالغيب هو علة

إعمار الكون ، وبه يتم التعامل بين الناس ، ذلك لأن الإنسان ابن أغيار ، كثير التقلُّب ، ولو علم كل منا وكُشف له ما عند أخيه لتقاطع الناس ، وما انتفع بعضهم ببعض .

لذلك يقولون : لو تكاشفتم ما تدافنتم . يعنى : لو كُشف لك عما فى قلب أخيك لَضننْتَ عليه حتى بدفنه بعد موته .

إذن : فجَعْل هذه المسائل غَيْباً مستوراً يُحنِّن القلوب ، ويثرى الخير بين الناس ، فينتفع كل منهم بالآخر ، وإلا لو علمتَ لواحد سيئة ، وعرفتَ موقفه العدائى منك لكرهتَ حتى الخير الذى يأتيك من ناحيته ، ولتحرك قلبك نحوه بالحقد والغل ، وما انتفعتَ بما فيه من حسنات .

لذلك ، نقول لمن يبحث عن غيْب الآخرين : إنْ أردتَ أن تعرف غَيْب غيرك ، فاسمح له أن يعرف غَيْبك ، ولن تسمح له بذلك ، إذن : فدَعْ الأمر كما أراده الله ، ولا تبحث عن غَيْب الآخرين حتى تستقيمَ دفّة الحياة .

وربك دائماً يلفتك إلى النظر إلى المقابل ، ففى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، دعوت على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإنْ شئت أجبناك وأجبنا عليك ، وإن شئت تركتكما إلى الآخرة فيسعكما عفوى »[١] .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يُصفِّى نفوس الخَلْق ، وأن يقف الناس عند حدود ما أطلعك الله عليه ، ولا تبحث عن المستور

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى (٣/١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

حتى لا تتعب نفسك ، حتى تواجه مشاكل الحياة بنفسٍ صافية راضية عنك وعن الناس .

ثم يقول تعالى : ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون] لأن ما تشركونهم مع الله لا يعلمون شيئاً من هذا كله ، لا غَيْباً ولا شهادة ؛ لذلك لا ينفعك إنْ عبدتَه ، ولا يضرك إنْ لم تعبده .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿قُل .. ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿رَّبِّ .. ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] منادى حُذِفَتْ منه أداة النداء يعنى : يا رب ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : من العذاب ﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون] أى : إن قدَّرتَ أن تعذبهم فى حياتى فلا تُعذِّبهم وأنا فيهم .

وهذا من رقة قلبه ﷺ ، وحين اشتد به إيذاء الكفار وعنادهم فى أول الدعوة أرسل الله إليه الملائكة تعرض عليه الانتقام من قومه المكذِّبين به ، لكنه يأبى ذلك ويقول : « اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون»[1] ويقول : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم مَنْ يقول :

(١) أخرج ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق مجاهد عن عبيد ابنُ عمير قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه ، ثم يفيق فيقول : اهد قومى فإنهم لا يعلمون . وقال شقيق : قال عبد الله : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء ، وهو يقول : اللهم اهدَ قومى فإنهم لا يعلمون . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/٤٨١] . وانظر كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (٢٧٨ ، ٢٨٠) .

لا إله إلا الله ».

كما أن موقفه يوم فتح مكة واضح ومعروف ؛ ذلك لأنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين .

لكن ، هل قال الرسول ودعا بهذا الدعاء لأنه يعتقد أن الله يجعله معهم حين ينزل بهم العذاب ؟ نقول : لا ؛ لأنه لم يقُلْ هذه الجملة من نفسه ، إنما أمره الله بها ، ولم يكُنْ رسول الله ليعتقد هذا الاعتقاد ، إذن : المسألة وَحْى من الله لا بُدَّ أن يُبلِّغه ، وأن يقولها كما قالها الله ؛ لأن مدلولها رحمة به في ألاَّ يرى مَنْ يعذب ، أو من باب قوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً .. (٢٥)﴾ [الأنفال]

وهذا الدعاء الذى دعا به رسول الله يدفع عنه أىَّ خاطر يطرأ عليه ، ويطمئنه أن هذا الأمر لن يحدث .

وقوله : ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي .. (٩٣)﴾ [المؤمنون] عبارة عن (إنْ) و (مَا) وهما يدلان على معنى الشرطية والزمنية ، فكأنه قال : قُلْ ساعةَ أن ينزل بهم العذاب : ربٍّ لا تجعلنى فى القوم الظالمين .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) كتاب الجهاد من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يُجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً .

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : أننا قادرون على أن نُريك شيئاً مما وعدناهم به من العذاب ، لكنه ليس عذابَ الاستئصال ؛ لأن الله تعالى أكرم أمتك ـ حتى الكافر منها ـ بأن عافاها من هذا العذاب ، لأنه يأتى على الكافرين فلا يُبقى منهم أحداً ، ويمنع أن يكون من ذريتهم مؤمن بالله . فهَبْ أن عذاب الاستئصال نزل بهم فى بدر مثلاً ، أكُنَّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر ؟

إذن : لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا علم الله تعالى أنه لا فائدة منهم ، ولا حتى من ذريتهم من بعدهم ، كما حدث مع قوم نوح ، ألاَ ترى نوحاً عليه السلام يقول عنهم : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح]

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام ، أو يحكم على قومه هذا الحكم إلا بوحْىٍ من الله ؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التى لا يعلمها إلا المكوِّن الأعلى سبحانه ، فنحن نرى عُتَاة الكفر ورؤوس الضلال ، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبلُّون فى الإسلام بلاءً حسَناً .

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص ، وكم تألَّم المؤمنون وحَزِنوا لأنهم أفلتوا من القتل ، لكن لله تعالى تدبير آخر ، وكأنه يدخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة .

فعكرمة بن أبى جهل يُظهر شجاعة نادرة فى موقعة اليرموك حتى يُطعَن طعنةَ الموت ، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجود بروحه فى سبيل الله : أهذه ميتة تُرضِى عنى الله ورسوله ؟ هذا فى يوم